لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء السابع والعشرون: تفسير الآيات ٤٣ – ٥٥ من سورة القمر

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو اللقاء السابع والعشرون من اللقاءات الرمضانية لهذا العام ١٤٣٤هـ نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعله شهرًا مباركًا علينا نعتق فيه من النيران ونفوز فيه برضى الرحمن نحن ووالدينا وذرارينا والمسلمين. اللهم آمين.

وقد بدأنا في هذا الشهر المبارك في هذه الدروس التي نحتسبها على الله قربة إليه، **بدأنا بالكلام حول الإيمان**:

- العنصر الرئيس في صلاح النفس وفلاحها
- الإيمان الذي هو جوهر الدين

الإيمان بالله وبكمال صفاته، الإيمان برسله الذين أرسلهم، وكتبه التي أمر الرسل بإبلاغها للخلق، الإيمان بلقائه سبحانه وتعالى .

فكان هذا الإيمان هو أصل الدين وأصل صلاح الخلق، **ومن ظنّ أنه يصلح كشخص**، أو ظنّ أن المجتمع يصلح دون أن يكون الإيمان هو العنصر الرئيس في الدعوة والتعليم والعنصر الرئيس في النظر للحياة، **فقد ظنّ ظنًّا باطلاً**، ولابد أن يخسر مثل هذا جهوده في إصلاح نفسه وإصلاح غيره، فإنّ الإيمان يُبنى عليه كل عمل، وبه يتمّ كل صلاح للفرد والمجتمع.

ومن أعظم ما يُطلب الإيمان به ويؤمر ويُعاد ويوعظ ويُذكر به **الإيمان باليوم الآخر**، من أجل أن يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، وتفكر فيما بعد الموت، وإذا حصل هذا تُعير هذه النفوس آذانها لداعي الهدى، وتطلبه وتسعى وراءه، فتتهيأ لقبول الحق، وهذا الأمر يكاد يجهله أكثر الخلق (أن نفسك لن تتهيأ لقبول الحق إلا إذا عرفت ما وراء هذه الدار).

إنّ الموت الذي لابد أن نلاقيه يجب أن يكون غائبًا يشغل العقول، غائبًا يُنتظر في أية لحظة، وهذا سيسبب أن تتهيأ نفوسنا لقبول الحق، هذا يجعل من حاجاتنا النفسية الملحة أن نعرف كيف ننجو في تلك اللحظة، كيف

نكون نحن من الذين تقول لهم الملائكة ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾ فصلت: ٣٠ ، تقول لهم: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فصلت: ٣١.

كيف الطريق لهذا اللقاء؟ فإذا غاب ذكر الدار الآخرة عن العقل، تجد أن الإنسان يركب هواه ولا يحاسب نفسه على الكبير قبل أن يحاسبها على الصغير، ويطلق الكلام على عواهنه، ويتصرف التصرفات لمجرد أنها خطرت على باله، فلهذا ذكرى الدار الآخرة يجب ألا تغيب عن بالنا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء: ١ ، ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ، أبعد هذا الوعظ وعظ؟! هل بعد هذا يستطيع معتذر أن يعتذر لربه أنه ما استعدّ لأنه لم يكن يعلم؟! كُرّر علينا الاقتراب.

وفي مدارستنا لسورة القمر نود في أول الأمر أن نعرف أن هذه السورة العظيمة

- كما أن فيها آية عظيمة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم تسبب لنا زيادة الإيمان
- كذلك فيها إشارة لأمر مهم وهو انقسام قلوب الخلق إلى لين وقاس، والسبب في قسوة القلب وعدم الاستجابة لنداء الرب، فهذا ظاهر في أول السورة .

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ ومعنى اقترابها أمر غاية في الوضوح، ﴿ اقْتَرَبَتِ ﴾ فأصبحت قريبة.

﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وهذه إشارة إلى آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر، كما ورد في صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ[1]، وفي رواية الترمذي زاد: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ...[2] .

[1] متفق عليه، واللفظ للبخاري: "صحيح البخاري" (كتاب المناقب، باب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، ٣٦٣٧).

[2] "سنن الترمذي" (أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ، ٣٢٨٩) قال الألباني: صحيح.

وهذه قصة من القصص المشهورة المتداولة المتناقلة المعلومة الصحة، وقد ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ وَفِرْقَةً دُونَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ((اشْهَدُوا))[٣]. فهذا هو معنى قوله تعالى: {وانشق القمر} .

وانشقاق القمر الذي هو آية للنبي صلى الله عليه وسلم **ما علاقته باقتراب الساعة؟** ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ فهذه إشارة –والله أعلم– إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم النبي الكريم خاتم الأنبياء بُعث كما وصف صلى الله عليه وسلم: ((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ))[٤] فزمن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أحد إشارات قرب قيام الساعة، فالموعظة هنا أن نتفكّر في اقتراب الساعة، ساعتنا التي تخصنا قبل أن نفكر في الساعة العظيمة وهي ساعة قيام الخلق إلى ربهم.

وهذا الانشقاق علامة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من جهة، وفتنة لأولئك القوم من جهة أخرى، فإنهم لما طلبوا الآية وحصل انشقاق القمر مع أنهم رأوه بأعينهم إلا أنهم قالوا أن هذا سحر ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً ﴾ واضحة بينة، ردّهم عليها أنهم ﴿يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ ﴾، أي أن محمد سَحركم بذلك، سحر أعينكم أيها الناظرين، فلما قالوا هذا الكلام، قالوا هذا سحر محمد بن أبي كبشة، يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا قد سحر محمد القمر، وكلام من هذا النوع الذي فيه ردّ على الحق، سألوا المسافرين، أشير إليهم أن يسألوا المسافرين، فسألوهم، فتبيّن صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء السفار لن يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يسحرهم وهم في أسفارهم، إن تمكّن منكم فلن يتمكّن من أولئك! لكن هؤلاء حتى لما سألوا المسافرين، أي أنهم رأوا انشقاق القمر فقالوا سحر، قيل لهم اسألوا المسافرين، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، أي بلغ حتى أولئك القوم الذين كانوا مسافرين، الآن العلة أين كونهم يتهمون أن هذا سحر هذا معروف ومتكرر ومعهود قد حصل كثيرا، ولكن أين العلة؟

في نفوسهم: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾، وهذه مصيبة المصائب، أي : أنهم يرون الآية البينة على صدق ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فماذا يفعلون؟ يكذبون اتباعًا للهوى، أي أن تكذيبهم لا دافع لهم

[٣] "صحيح البخاري" (كتاب التفسير، باب {وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا}، ٤٨٦٤).

[٤] متفق عليه، "صحيح البخاري" (كتاب الرقاق،باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ،٦٥٠٤)، "صحيح مسلم" (كتاب الجمعة، باب تَخْفِيفِ الصَّلاَةِ وَالْخُطْبَةِ ،٢٠٤٢).

إليه إلا اتباع ماتهواه أنفسهم، على أي شيء؟ ماذا تهوى أنفسهم؟ أن تبقى حالهم على ما ألفوها وعهدوه واشتهوا دوامه؛ أي مما يؤلهه الإنسان ويعظمه: إلفه وعادته، يكره أن يغيّر أحد له أفكاره وإن أتى له بالأدلة الصحيحة على هذا التغيير.

الآن هذه ليست دعوى لقبول أي فكر، ولكنها دعوى لأن تجعل فكرك مبنيًّا على الأدلة، فلما تؤمن أن هذا الكتاب هو الحق، تجعل فكرك ونظرك للأمور منه وليس من غيره، وليس ما ألفت أو اعتدت.

إذن ﴿ وَكَذَّبُوا۟ ﴾ ، والدافع لكذبهم اتباع أهواهم، والهوى أمر إذا دخل بحر يمتزج به فيصيبه بالعفونة، إن للناس أهواء كثيرة تجعلهم يمتنعون من قبول الحق، مثل حب الرياسة، وأحيانًا حسد من استقام على ما آتاه الله، الإلف والعادة، وأحيانًا العناد والاعتداد بالرأي، كل هذه من الأهواء التي تسبب ردّ الحق، فيقال لهم ولكل من ردّ الحق من أجل هواه بعد أن تبينت لهم الآيات، يعني الآن لا يطلب منك أن تقبل كل دعوى حيث تبينت الآيات الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ ، هذا أولًا يعرضون عنها، آية واضحة بينة يعرضوان ويتهمون الآية ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ويكذبون، وهذا كله بسبب اتباع أهوائهم .

وهذه الكلمة (اتباع الهوى) تضجّ بها الأرض، وإن هناك قوم حسدوا أهل الاستقامة على الإيمان، حسدوا المصلين على صلاتهم، حسدوا المنفقين على إنفاقهم، فأصبحوا يغمزون ويهمزون في أهل الإنفاق والمصلين والعابدين والطائعين، يهمزون ويغمزون وأحيانًا بأمور فيها شيء من تلبيس الحق بالباطل، ولكن هذا كله مبني على أمر واحد وهو الهوى الذي يحكم الخلق .

إذا امتلأ القلب بالهوى، سَخر الإنسان كل ملكاته في الدفاع عن هواه والإعراض عن الآيات، إذن ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ معناه أنهم ليس قصدهم اتباع الحق والهدى.

يقولون : هات لنا آية تدلّ على صحة ما تدعيه، خذ الآية التي تدلّ على الصحة، استقبل الآية ما يستقبلها، ليس له قصد اتباع الحق والهوى، ولكن قصده يسكتك، أي يسكت الحق، قصدهم اتباع الهوى وليس لهم مقصد في اتباع الحق والهدى، ولذلك الله عزّ وجلّ يقول لنبيه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ ، ليست المشكلة في الآية التي معك ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ القصص: ٥٠ ، فلو كان قصدهم اتباع الهدى كانوا مباشرة آمنوا، لأن مع النبي صلى الله عليه وسلم الآيات البينات لكن ليس لهم مقصد الإيمان فكانت هذه هي النتيجة.

ولذلك يقول الله عزّ وجلّ ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ المعنى :أن لكل أمر حقيقة، وهذه الحقيقة منها ما يظهر في الدنيا، ومنها ما سيكون في الآخرة ويُعرف، فيستقر قول المصدقين، ويستقر الصدق في قلوبهم، ويستقر قول الكاذبين المكذبين في نفوسهم، ثم يأتي اللقاء فيعرف المكذبون حقيقة الثواب والعقاب ويعرف الصادقون ما كانوا عليه من صدق.

ولذلك فيما يقال : أن رجلًا ملحدًا قال لمؤمن بالله وباليوم الآخر: ماذا سيكون شعورك لو عند الموت اكتشفت أن لا إله ولا آخرة؟! قال: لن يكون أسوأ من شعورك أنت لو اكتشفت أن هناك إله وهناك آخرة! وهذا هو الصحيح، فإن المؤمن إيمانه يدفعه لأن يستقر ويثبت ولا يتلجلج، لكن هذا المكذب الملحد يسعى وراء كل شيء يشكك غيره ويثبت لنفسه أنه لا خير في اعتقاد غيره، هذا استقر في قلبه وهذا استقر في قلبه.

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أنت يا مصدق استقر في قلبك التصديق وسيأتي اليوم الذي سيظهر فيه هذا الصدق، وأنت أيها المكذب المعمي عن كل هذه الآيات وكل هذه التدبيرات سيأتي اليوم تنادي يا رب نجيني فينجيك فتنكره! تناجي يارب أرزقني وأعطيني فيعطيك، تراه يسخر لك الليل والنهار والشمس والقمر، أبدع الأرض على بديع الصنع وترى فيها من الثروات والعطايا، أعظم العطايا، ثم تنكر أن هذا كله يكون وراءه ثواب أو عقاب.

على كل حال لكل حديث منتهى، ولكل مجادلات بالباطل أو بالحق وقت يظهر فيها صدق الصادقين ويظهر فيها عدوان الظالمين، فإذا كان لكل أمر مستقر فلا يكن في نفسك حرج من أن تكون وحدك والناس عنك متفرقون، وأن يكون معك السكينة والطمأنينة والثقة والناس حولك مضطربون، فهذا من آثار الإيمان، أن تكون ممن سكن، فإن الله ينزل السكينة على خلقه.

ومن آثار عدم أو ضعف الإيمان أن ترى القوم مضطربين وهذا الاضطراب لأن هناك غليان في القلب بسبب عدم استقرار الاعتقاد الصحيح.

هذا الأمر مستقر سيكون استقراره بأهله يوم القيامة وسيقع ما أخبر الله عز وجل به .

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ الحكمة ظاهرة فيمن هداهم الله وفيمن ضلّهم، فما تغنِ النذر إذا كان قلب العبد معرضًا عن الله مهما كررت عليه من الإنذار والوعيد لا تجده مستعدًّا للنذير ولا مستعدًّا لأن يسمع كلام البشير، إنما يرى هذه خرافات ويستسلم لهواه ويتبع ما كان يتبع قبل أن يصله الحق .

السورة أخبرت عن آية عظيمة كانت تكفي للإيمان لكنهم ردوها والسبب اتباع الهوى، فبعد هذا الخبر قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أمرًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنذارًا لما سيكون ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ ، المكذبين هؤلاء إذا أصروا على شأنهم اتركهم وانتظر يومًا عظيمًا، هذا اليوم العظيم سيظهر فيه صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فإذا آمن به الإنسان –آمن بهذا اليوم العظيم– استقامت حياته، لكن ضعف الإيمان لهذا اليوم وعدم تصور الأحداث التي ستكون فيه هي السبب الرئيس الذي يجعل الإنسان لا يستقيم على دينه.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ : اتركهم، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾، ماذا سيكون حالهم؟ ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ المقصد أن هذه الأحداث ستكون فيها إيذان بغضب ووعيد، فالمؤمن يعرف أن هذا حق وأن الخلق سيكونون بهذه الحال ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ مسرعين إليه، ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ هذا قول للكافرين والذين لم يصدقوا ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ وهكذا تكون عليهم القيامة، تكون عليهم يوم عسر يدع الداعي إلى الأهوال، يحضرون إلى الحساب، يدعوهم الداعي لهذا الحساب، وهذا من الأمور العظيمة، يعني دعاء الداعي مؤذن بأنهم يحضرون إلى الحساب، وهذا مما يورث الفزع في القلب، يدعوهم أن تعالوا هلموا أن تحاسبوا على ما فعلتم .

والأمر الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم؛ لأن ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ﴾ فيه من الإبهام ما يشعر بأنه مهول .

الأمر الثالث: أنه وصف بأنه نكر، يعني: تنكره النفوس، تفزع منه، تخاف تستنكره، ليس أمرًا تعرفه .

الأمر الرابع: في هذا الوصف: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ يعني ذليلة ينظرون من طرف خفي، وهي نظرة الخائف المفتضح، فيه ذل، النظر يظهر فيه ذل الذليل وعزة العزيز، فهم أبصارهم ذليلة .

ثم وصفوا بأنهم ﴿ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ مقتضّين يستتر بعضهم ببعض من شدة الخوف كثرة وحركة كأنهم جراد منتشر، كثير يتحركون يستتر بعضهم ببعض من الخوف .

مُّهْطِعِينَ : يعني يمشون مشيًا سريعًا مادًا عنقه، وهي مشية المذعور ما يلتفت لأي شيء، ثم يقول: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ وهذا قول من أثر الموقف في نفوسهم، من أثر الخوف، عسر شديد صعب، وهذه الأهوال مُؤمَّن منها أهل الإيمان الذين تتلقاهم الملائكة في قبورهم وعند خروجهم وحشرهم، فنسأل الله بمنّه وكرمه أن تكون الملائكة أولياءنا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

خرجوا من قبورهم إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض يخرجون وينبتون كما مر معنا سابقًا، ثم يخرجون وينتشرون كما انتشر الجراد، ففي هذا تشبيه هيئة خروجهم من القبور متراكمين كهيئة خروج الجراد، وهو أمر معروف لمن يعرف خروج الجراد كجماعات يتصور زحامهم وكون بعضهم فوق بعض.

ثم أتت الآيات تذكر تكذيب من قبلهم وأتى تكذيب قوم نوح عليه السلام ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ كذب قبل هؤلاء قوم نوح وتكلموا على نوح عليه السلام، ذكر الله قصتهم وذكر ما فعل في تعذيبهم وقال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أخبرنا عن القصة إشارة إلى ما حصل لهم من هلاك بعد تكذيبهم فاعتبروا، والله يسّر القرآن لمن كان يريد أن يتعلم، فأقبل عليه وتعلم.

ثم مثله ذُكر قوم عاد ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي كذبت عاد كما كذبت قوم نوح ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إلى أن انتهت القصة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، ثم ذكر قوم ثمود ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ ، ذكر الله عزّ وجلّ دعواهم وما كان منهم، وموقفهم من الناقة، ثم ختم قصتهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، ثم ذكر سبحانه وتعالى قوم لوط: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾، وذكر الله عزّ وجلّ ما حصل بينهم وبين نبيهم، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

وهذا كله فيه إشارات إلى أن من أراد الهدى فعليه أن يقرأ هذا الكتاب، قراءة متأمّل متفحص يريد أن يستقيم شأنه ويصلح قلبه، فيكون ممن آمن واستقام، **ولا طريق للإيمان والاستقامة إلا بالانكباب على هذا الكتاب.**

إلى أن ختم هؤلاء الأقوام وما حصل بينهم وبين رسلهم وكيف أن الله عزّ وجلّ جعلهم عبرة وأذاع شأنهم والناس كلهم يتداولون ما حصل لهم، وديارهم تشهد بآثارهم، ختم بذكر آل فرعون، كيف أنهم ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ إلى أن نصل إلى مقصودنا اليوم من الآيات وهي خاتمة السورة، بعد أن مررنا على مطلعها، سنلاحظ أمرًا مهمًا : أن السورة ابتدأت بالكلام عن اقتراب الساعة، وعلامة صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف أن المكذبين ردوا بسبب أهوائهم وما سيكونون عليهم يوم القيامة، ختمت السورة بمخاطبة هؤلاء المكذبين، ووصف حال المؤمنين يوم تقوم الساعة ويستقر أهل الجنة في الجنة نسأل الله من فضله، ويستقر أهل النار في النار نعوذ بالله من الخذلان .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَ ٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾ ﴾ القمر: ٤٣ - ٥٥

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ ﴾ يعني : ياقريش يامن كفرتم بعدها ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ ﴾ من أولئك القوم ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ .

نقرأ كلام الشيخ السعدي يقول :

"والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرا منهم، فليسوا بخير منهم".

يعني : يا من كذبت محمد أنت لست خيرًا من قبلك لكي تنجو من العذاب، هذا إذا لم تكن شرا ممن قبلك .

"{أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} أي: أم أعطاكم الله عهدا وميثاقا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟".

أي: إما أنكم خير فتكونون من دماء زكية فلا يصيبكم العذاب، أم أنكم قد عهد الله عليكم أنكم لا تعذبون مهما فعلتم.

"وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلا وشرعا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها،

فأخبر تعالى أنهم يقولون: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ}".

يعني: كأنهم يتقوون على قدرة الله، ثلاثة أمور:

١. إذا لم تعتبروا بمن قبلكم الذين هلكوا ماذا تظنون؟ أكفاركم خير من أولئكم؟ هذا الاحتمال الأول وقد انتفى.
٢. أم لكم براءة في الزبر وهذا أيضًا انتفى. طيب ماذا بقي؟
٣. أم يقولون نحن جميع منتصر، وهذا الذي بقي من أقوالهم.

"قال تعالى مبينا لضعفهم، وأنهم مهزومون: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر".

فهذه السورة مكية، نزلت في مكة وحصل انشقاق القمر في مكة، وانهزامهم كان في بدر، وهذا دليل على أن ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ، أي: يستقر الإيمان في قلوب أهل الإيمان وينمو، ويستقر الكفر في قلوب أهل الكفر ويبقى، ثم يقضي الله عزّ وجلّ في كل منهم.

"وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين".

ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} الذي يحازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط

ثم وصفت الساعة ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ ، إذن هذه الحقيقة التي لابد أن يعرفها كل من يفكر في شأن أهل الكفر، أنهم ليسوا خيرا ممن قبلهم، وليست لهم براءة، ولا تتصور أنهم جمع ينتصرون ولا يُغلبون، وأن معهم من الآلات ما يردون به عذاب الله، لو فتشنا في القوم الذين مضوا، كم ادعوا أنهم أصحاب قوة أو أصحاب سلطان أو أصحاب مال أو أصحاب جنود، وانظر إلى الأقوام الذين ذكروا في السورة ستفهم هذا جيدا وتعرف أنه لا عظيم إلا الله، وهؤلاء اختبروا بأن مكنهم الله، ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، فهذا وعد، ووعد سوء، أي أن هذا وعيد من الله عزّ جلّ لهم ﴿ أَدۡهَىٰ ﴾ بمعنى أنّ الساعة أشدّ إصابة بداهية الخلود في النار من داهية عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، وأمرّ: أشد مرارة.

يقول الشيخ: "**{وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} أي: أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال**".

فهذا العذاب الذي يقع عليهم في الدنيا إذا قورن بما في يوم القيامة سيكون لا شيء ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ ، فيها من المرارة ما تجعل الإنسان لا يستطيب شيئا وهم لا يستطيبون شيئا.

"**{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ} أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي {فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم**".

إذن هنا وصف: إن المجرمين لهم وصفين، في ضلال هنا وفي سعر هناك، ثم وُصف ما سيكون:

"**{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم:**

{ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها".

وهذا كله تخويفًا لهم مما سيكون، ومنعًا لهم من الاغترار، فسيحسون هؤلاء بأشد العذاب، ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾، وسقر هي جهنم، والسقر هو التهاب في النار، فالمقصود أن هذا كله تخويف لهم من اختيارهم الضلال، فحالهم في الدنيا الضلال، وحالهم في الآخرة السعير، وهذا إنما هو جزاء لاختيارهم، فكأن السياق يخوف من هذا الاختيار، كن على حذر من أن تضل، أن تضل في علمك وفي عملك.

"{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها.

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير".

والمعنى: سمعت من قبل بوعيد ونذير وعليك أن تعتبر بما حل بالمكذبين، فالله عزّ وجلّ خلقنا وفعل كل ما ذكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها، ويسّر لنا كل الأمور التي نصل بها، فكل شيء خلقه مقدّر تقديرًا ينتفع به الخلق إن كشفت عنهم غفلتهم، فلا تكن ممن أصابتك الغمة وصرفتك عن الحق، خلق الله الأشياء ولها قوانينها الجارية وكلها جارية على الحكمة، ومن حكمته سبحانه وتعالى أنه جعل الدنيا اختبار والآخرة دار القرار، فلا تظن أبدا أن الله خلق الخلق عبثا، هذا من الحسابات الباطلة، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٥ ، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ الحجر: ٨٥ ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الدخان: ٣٨ - ٤٠ ، إذن كل هذه الآيات يذكر الله عزّ وجلّ فيها الخلق أنه خلق لحكمة، ثم يذكر الساعة ويوم الجزاء، فالمعنى: عش هذه الحياة وأنت تنتظر يوم الجزاء، وهنا قيل لنا ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

"فلهذا قال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة".

ومن ذلك القيامة، فتقوم ويجتمع الخلق كلهم في مكان واحد ويحاسبهم سبحانه وتعالى، وكل ذلك إنما هو بأمره وهو واحدة كلمح بالبصر، فهو العليم القدير، وهو الحكيم الخبير، فلا تقس الملك العظيم بشأننا نحن الفقراء الناقصين .

يقول سبحانه وتعالى: "**{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ} من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}**".

يعني كما أن المطلوب أن تتذكر القرآن الآيات الشرعية، كذلك مطلوب منك أن تجعل التاريخ بين عينيك، وسنرى كيف يداول الله بين الأمم، وكيف من يتبع السنة وما أمر الله كيف يحفظه الله ويحميه، وكيف من يخالف السنة، ويخالف أمر الله وأمر رسوله كيف يقع عليه من الوبال ما يقع، وانظر حولك، وانظر في التاريخ، ستعرف الحقيقة، أنه لا أحد يخالف أمر الله إلا تقع عليه سنة الله .

"**{ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين**

{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية { وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ } أي: مسطور مكتوب،

وهذا حقيقة القضاء والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه".

فالعبد يرجوا من الله لما يعلم هذا الأمر يرجو منه أن يكون من أهل الخير، يطلب منه أن يصلح قلبه وأن يجعله من أهل الجنة، فإن الأمر فيه من العبد صدق وحب ورجاء، وفيه من الرب سبحانه وتعالى عفو ورحمة وتقريب للخلق إلى طريق الله.

"**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ} لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر**".

لم يقولوا قولًا باطلًا فيقولون نحن لو كنا مؤمنين وأراد الله أن نكون مؤمنين كنا اتقينا، إنما هم بأنفسهم يتقون، يفعلون ما يستطيعون والله عليم بأحوال الخلق-.

إن المتقين الذين بذلوا هم جهودهم وأظهروا لربهم خوفهم ورجاءهم، إن المتقين الذين لم يكذبوا على أنفسهم فيقولون: لو أراد الله هدايتنا كنا اهتدينا، إنما هؤلاء المتقون اختاروا هم بقلوبهم والله أعلم بما في قلوب الخلق، اختاروا وقصدوا الحق ولم يتبعوا أهواءهم، وجاهدوا أنفسهم لما تاهت منهم، وطردوا الأفكار الباطلة لما وردتهم، والشبهات لما سمعوها ردوها، فاتقوا بقلوبهم كل ما يفسدها . إذن هؤلاء اتقوا، ما حالهم؟

{فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ }فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته.

جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

والحمد لله رب العالمين.